الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في مدينة تبريز في العهد الصفوي١٥٠١-١٧٢٢م

أ.م.د. نهلة نعيم عبدالعالي
جامعة ذي قار-كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم التاريخ

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث مدينة تعد إحدى أقطاب اقتصاد الدولة الصفوية حينذاك ، واحتوى البحث على لمحة جغرافية للمدينة من موقع ،ومناخ، وتضاريس لاستنتاج أهمية ذلك في النشاط التجارى للمنطقة ، فلم تكن تمثل بقعة مقدسة ولم تحض بأهمية دينية لكن الفعاليات الاقتصادية استطاعت ان تنشط على نحو واضح تماماً ،فكانت ذات اهمية تجارية ومحطة رئيسة لتجمع البضائع التجارية كافة من جميع المدن وأبرزها الحرير، هذا المنتج شكل البضاعة الرئيسية والمربحة للحركة التجارية مع كثير من البلدان وانعاش تجارة الدولة ، وتحتوي أسواق تبريز على الأقمشة الصوفية ،والنسيج، والسجاد التي يقوم التجار بتصديرها ليست في داخل البلاد فحسب ، وانما الى روسيا والهند والصين والى اوربا ،من دون اغفال تسليط الضوء على تصنيف الحرف والصناعات اعتمادا على معاير الجهة الممولة للنشاط ، وطبيعة المواد المستخدمة فيه ، ومحاولة لرصد التطور الذي شهدته الحرف والصناعات استناداً الى تحديد العوامل المتحكمة فيه بقصد استجلاء مظاهر انعكاسات الانشطة الحرفيه على المستويين الاقتصادي والاجتماعي.

الكلمات المفتاحية : تبريز، الموقع الجغرافي الأسواق، اجتماعي .

Social and Economic Circumstances of Tabriz during the Safavid Reign 1501-1722

Asst. Prof. Dr. Nahla Naiem Abdul-Aalli
University of Di-Qar, College of Education for Human Sciences

Abstract

This research deals with the economic importance of the city of Tabriz during the Safavid reign. The research gives a geographical glance of the city; location, climate and surface structure to show the impact of these factors on the trade activity of the region. It wasn't a holy spot and it never had a religious importance. However, the economic activities did flourish very clearly. It was a trade center for all goods and silk in particular. This product represented the main and the most profitable material in the trade activity with many countries. The markets of Tabriz were full of wool clothes, fabric and carpets. The merchants export them not only inside the country but also to Russia, India, China and Europe. Light has also been focused on the classification of the crafts and industries depending on the criteria set by the funders and the nature of the materials used. The research also tries to observe the development of the crafts and industries.

Keywords: Tabriz, social, economic, circumstances, geographical location, crafts, markets.

المقدمة:

هذا البحث محاولة لدراسة جوانب مهمة لمدينة تبريز وتأتي اهمية هذه المدينة لكونها برزت عاصمة للتيمورين سابقاً وثم الدولة الصفوية في بداية تأسيسها، فقد كانت اطاراً حياتيا ووسطا معاشياً لتفاعل النشاطات الاقتصادية والإحتياجات الاجتماعية للمدن كافة لكون هذه المدينة استوعبت جماعات وطوائف مختلفة تنتمي لأديان وأعراق متعددة ممن يمتهنون التجارة ، ونظراً لوقوعها كما هو معروف في منطقة جغرافية متميزة ، ومع انماط المعيشة والعقلية الاقتصادية لهؤلاء التجار ولأرباب المهن وعلاقاتهم الخارجية مع الدول الأوربية استطاعت هذه المدينة أن تنشط على نحو واضح تماما وأن تضطلع بمسؤوليتها لكونها مركزاً اقتصادياً بالرغم من أنها لم تشهد استقراراً سياسياً مستمراً لكونها تعرضت الى هجمات عدة من الدولة العثمانية وما ترتب على هذه الهجمات من تراجع اقتصادي لها .

اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي عبر تقصي الوقائع وبيان أهم مراحل النشاط الأقتصادي في المجالات التجارية والزراعية لها كافة لمدة امتدت مايقارب قرنيين وعشرين عاماً.

في ضوء هذا تضمنت الدراسة مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة وقائمة المصادر والمراجع المعتمدة ، تناولت مدخلاً لدراسة المناخ والموقع الجغرافي الذين غديا مدينة تبريز من خلاله عقدة مواصلات التجارة، وثم دراسة التركيبة الاجتماعية التي تميزت بها عن غيرها من المدن الايرانية التي نستطيع منها تتبع أثر العلاقات الاجتماعية على تكوين الاحياء السكنية والبنية العمرانية للمدينة، ولم تتوقف الدراسة عند هذا الحد بل تناولت البنية الاقتصادية، فقد سلطت الضوء على تبريزبوصفها احدى المدن الاقتصادية وعلى الاحداث التاريخية التي تربط بوضوح بين الازدهار الاقتصادي وبين النشاط العمراني الذي شهدته من خلال نشأة الاسواق والادوار وتطورها الاقتصادية التي أدتها مع التاكيد على ان اقتصاد تبريز لم يعن بالتجارة والصناعة والزراعة فحسب وإنما ايضاً بالمهن اليدوية والحرف التقليدية ، وثم التطرق الى الاحداث الداخلية والخارجية التي تسببت في تراجع دورها الاقتصادي المهم ، لاسيما ماتعرضت له من هجمات عثمانية متكررة ، فضلاً عن الكوارث الطبيعية .

استدعت الدراسة الرجوع الى مجموعة من الكتب الفارسية المتنوعة التي لايمكن الاستغناء عنها أهمها كتب الرحالة الاجانب سواء كانوا تجاراً ام مبعوثين من بعض الدول لمهمة سياسية ومانقلوه من تفاصيل عن هذه المدينة اهمها كتاب (سياحتنامه شاردن) (رحلات شاردن) للتاجر الفرنسي شاردن ،و(سياحتنامه اوليا چلبى قسمت آذربيجان وتبريز) (رحلة اوليا چلبى مرورا آذربيجان وتبريز) للرحالة العثماني اوليا چلبى ، واعتمدت الدراسة على كتب فارسية مهمة التي رفدت البحث بمعلومات دقيقة اهمها كتاب (بافت تاريخى شهر تبريز) للمؤلفين بهروزعمرانى وحسين اسمعيلى سنگرى ، و(تاريخ تبريز) لمؤلفه مينورسكى ، ونقله للغة الفارسية عبد العلى كارنگ ، فضلاً عن مجموعة من البحوث والمقالات باللغة الفارسية .

-المبحث الاول :الموقع الجغرافي والتركيبة الأجتماعية والبنية العمرانية لمدينة تبريز

-الموقع الجغرافي

تباين اهمية الموقع الجغرافي لكل مدينة من المدن تبعاً لمجموعة من العوامل اهمها مساحة المدينة وشكلها، ومدى اطلالتها على مناطق بحرية مفتوحة على المحيطات وما تمتلكه من سواحل وعلاقتها مع مدن كبرى من عدمه، فضلاً عن مصادر التنوع الجيولوجي والمناخي والتضاريسي. وما ينعكس ذلك على وجود الموارد زراعية كانت ام صناعية، ونحن بصدد مدينة تبريز، سوف نتناول اهمية الموقع الجغرافي من خلال هذه المحاور .

تقع مدينة تبريز في اقصى الجانب الشمالي الغربي لإيران، بل تمثل الحدود الشمالية لإيران المحاذية لكل من الدولة العثمانية وارمينيا، وهذا ما يعطي لموقعها اهمية استراتيجية وتجارية ، فضلاً عن انها لا تبعد كثيراً عن السواحل الغربية والجنوبية الغربية لبحر قزوين، ومن ثم يمثل منفذاً بحرياً يعطي لهذه المدينة اهمية في جوانب متعددة (١) ، ويمكن تقسيم الطرق التجارية لمدينة تبريز وفقاً لموقعها الجغرافي على ثلاثة طرق ، اولها الطريق المؤدي الى اردبيل الواقعة شرق اذربيجان وغربها من بحر قزوين المتاخم للحدود الروسيه ثم الى شمان والطريق الثاني ،القوقاز، والطريق الثاني من الشمال الغربي عبر جالديران ونخجوان وصولاً الى جورجيا (٢).

اما بالنسبة لمناخ المدينة فمن مميزاته انه بارد طوال فصل الشتاء، فضلاً عن امطارها الغزيرة التي تقل نوعا ما في فصل الصيف ، وقد وصف مناخها الرحالة الفرنسي شاردن الذي قدم الى ايران عام : " **بأنه بارد وهوائها نقي ، وتنعم بهبوب الرياح الباردة طوال اليوم ، اما بالنسبة لحياة السكان المعيشية فكانت مترفة جدا،وهذا مالم اجده في اية مدينة اخرى** " (٣)، وأيده في ذلك الرحالة اولئاريوس بوصفها قائلاً " **بأن مناخها كما يعتقد الكثير من الايرانيين يشفي من الأمراض**"(٤) .

نستنتج من ذلك الموجز أن جغرافية مدينة تبريز واهمية موقعها ومناخها وكل هذه المقومات الطبيعية عززت من امكانياتها الاقتصادية مما جعل لها دوراً مميزاً وكبيراً في نشاط حركة التجارة وازدهارها .

-التركيبة الأجتماعية والبنية العمرانية لمدينة تبريز .

برزت مدينة تبريز بوصفها عاصمة اولى للدولة الصفوية لها تأثير كبير في الوجود التاريخي في بداية تكوينها، لكونها استوعبت جماعات وطوائف مختلفة تنتمي لأديان واعراف متعددة ،سواء كانوا من الفرس والتركمان، ومن الشيعة والسنة ، ومن غير المسلمين هناك الارمن والجراكسة والزرادشت ، فضلاً عن نسبة قليلة من اليهود الذين انتقلوا اليها برفقة التجار الأجانب من مدن كاشان ويزد وبغداد واستقروا فيها لممارسة مهنة التجارة ،وعدا هذه الطوائف كانت هناك نسبة قليلة من الغجر(٥)،اما المسلمين فكانوا يمثلون الاغلبية السكانية فيها ،ويوجد فيها من اتباع المذهب الشيعي فرقتان تسميان الحيدري ونعمتي اللتان تهيمنان على المجتمع التبريزي ، ويعتقد انهما العامل الضروري للمسيرة السلمية في الحياة الاجتماعية لمدينة تبريز انذاك ،إذ غالبا ما كانت تنشب خلافات بينهما (٦)، اما من الناحية الاقتصادية فكان المجتمع التبريزي ينقسم على تجار، ومزارعين

،وحرفيين(٧).

ويظهر لنا من كل ذلك ان تبريز كانت تتميز بتركيبة سكانية معقدة من الناحية الاجتماعية ،ولاشك أن هذه التركيبة التي تتميز بها مدينة تبريز عن غيرها من المدن الإيرانية يعود الى موقعها الجغرافي المميز.

ومن المعروف أن عملية احصاء عدد السكان لم تكن كما هو الأمر الان ، فلا توجد احصائية دقيقة لسكان مدينة تبريز في العصر الصفوي حينذاك ، وما ورد في كتب الرحالة والمؤرخين ما هو إلا اعداد تقريبية ،فقد كان سكان تبريز قبل قيام الدولة الصفوية يقدر بنحو ٣٠٠الف كان الشيعة يمثلون الاقلية فيها حتى تولي الشاه اسماعيل الحكم (١٥٠١-١٥٢٤م)، في حين اشار البعض الى أن عدد سكان مدينة تبريز قبل الاحتلال العثماني عام ١٥١٤م بحدود ٣٦٠ الف ، ولكن هذه الاعداد السكانية اخذت بالتناقص عند اعلان المذهب الشيعي مذهبا رسميا للبلاد واتباعه اساليب قسرية في نشر المذهب الشيعي دفعت بكثير منهم الى الهجرة داخل المدن الايرانية (٨). فضلاً عن تكرار الهجمات العثمانية وما خلف هذا الصراع من قتل وتشريد ، فضلا عن ذلك ما تعرضت له البلاد من كوارث الطبيعية كالزلازل والأمراض كما هو معروف لحد ما من جهة ، والتمردات الداخلية من جهة اخرى ، وجميع هذه الأحداث كانت السبب الرئيس في انخفاض الكثافة السكانية (٩) .

وفي ظل هذه الأوضاع وما تعرضت له البلاد من كوارث وازمات ، ليس من الممكن ان نقدم ارقاما قاطعة عن التطور الديموغرافي للمدينة ، واما بالنسبة للأرقام التي ذكرها المؤرخون والرحالة ، لربما تكون بعيدة عن الواقع نوعا ما .

أما فيما يخص طبيعة الادارة ، فحاكم المدينة والمسؤول عنها هو البيكلربيكي الذي بدوره ايضاً يشرف على جميع مدن اذربيجان منها قارص وارومية ومراغة وأردبيل، وله الحق في عزل حكام هذه المدن وتنصيبهم ويكون تحت امرته حوالي ثلاثة الاف جندي (١٠)، وتتميز مدينة تبريز أنها من المدن المثيرة للاهتمام ليس لموقعها الجغرافي فحسب ، بل أن انماط السكن المديني فيها لم يكن يشير الى البناء الاجتماعي ، فلم يكن الفصل على أساس الثروة معروفا في احياء مدينة تبريز، وانما كان الفصل الصارم للأحياء ذات الاهمية التجارية التي تحتوي على الدكاكين والورش .

تعد مدينة تبريز ثالث اكبر مدن الدولة الصفوية حينذاك من حيث المساحة ، اما شكلها العمراني فقد كانت مستطيلة الشكل تفتقر الى الأسوار، وتحتوي على اكثر من ثلاثمائة برج للمراقبة ، فضلاً عن وجود بوابات عدة من اهمها بوابة اوجان، وبوابة سروان، وبوابة مردود ، وقسمت نواحي المدينة الى احياء يضم كل منها مئة واربعون زقاق ، اما بيوت هذه الأزقة فقد بنيت من مادة الطين التي يمكن الحصول عليها بسهولة، ويتواجد في هذه الاحياء القليل من دكاكين اصحاب الحرف والمصانع الصغيرة ، او التي تباع فيها الحاجات اليومية كالبقالة والمخابز(١١)، ولكن في بداية القرن السابع عشر اصبح هناك تجاه بين العوائل الثرية من التجار للتجمع في مناطق خاصة متعددة الأشكال ،واغلب بنائها مصنوع من الطابوق ذو طابقين ومن الداخل كانت السقوف على شكل اقواس مبنية من

الطين المبيض بالكلس، وهذا ما يدل على تضاعف ثرواتهم وتطور التجار فيها فأصبحوا يملكون بيوتاً غالية الثمن (١٢).

اهم ما يميز مدينة تبريز أنها تحتوي على كثير من المواقع العمرانية المتميزة ، فالجوامع والمدارس والحمامات موزعة فيها بشكل مبعثرعلى انحاء المدينة كافة ، فهناك حوالي ثلاثمائة وعشرون جامعاً ومسجداً يعود البعض منها الى ما قبل قيام الدولة الصفوية ، أي في عهد خانات المغول (١٣) ، واهم هذه المساجد مسجد المتوكل عبدالله الذي تغير اسمه فيما بعد الى مسجد الدمشقية ، وجامع سلطان محمود غازان ، ومسجد حسن بادشاه الذي وصفه الرحالة العثماني اوليا چلبى الذي زار تبريز عام ١٦٤٧م ، بأنه من اجمل جوامع تبريز حينذاك (١٤)، ولم تقتصر الأبنية في تبريز على الجوامع والمساجد فيما يخص دور العبادة وممارسة الطقوس الدينية ، فهناك العديد من الجوامع او المساجد كان هناك ايضاً العديد من التكيات التي كان البعض منها يعود للعصر المغولي ، وهناك مالايقل عن مائة وستين تكية، ومن اشهرها التكية الحيدرية (حيدر تكيت) (١٥).

اما الحمامات الموجودة في مدينة تبريز والتي بنيت بطريقه مميزة، فقدر عددها بنحو واحد وعشرون حماماً، منها الخاصة التي تعود الى بعض التجار واعيان المدينة، ويعين لإدارتها موظفون مختصون (١٦).

شهدت مدينة تبريز العديد من المدارس الدينية التي قدرت بنحو سبع واربعون مدرسة موزعة بشكل منتظم ، وهذه المدارس مخصصة لتدريس العلوم الدينية سواء كانت علوم القران أم الحديث ، واشهر هذه المدارس هي مدرسة شاه جهان التي كانت تحتوي على سبع دور مخصصة لتعليم وتجويده القران ودراسة علم الحديث ، فضلاً عن ذلك كانت هناك دور خاصة لتعليم الأطفال القراءة والكتابة وعلوم القرآن والاحاديث وتسمى بـ(مكتب خانه كودكان)، ولم تكن هذه المدارس تدعم من الشاهات والحكام فحسب بل كان كثير من الأثرياء لهم دور كبير في دعمها مادياً ١٧).

من ناحية اخرى كان للساحات والاماكن السياحية دور في الحياة المدنية الاجتماعية في تبريز خلال العصر الصفوي ، ولم تكن هذه المؤسسات الخدمية محصورة في منطقة معينة بل منتشرة في كل انحاء مدينة تبريز ، وقد ادرك الرحالة الأجانب مدى اهمية هذه الاماكن ، فذكر اوليا جلبي،عن شارع صفي " كان هذا الشارع يشكل عنصراً جوهرياً في مجموعة النشاطات الترفيهية في المدينة "، كما كان هناك العديد من المساحات الكبيرة التي تعد موقعاً مثالياً لعدد غير قليل من الفعاليات والعروض الترفيهية للسكان ، كسباق الخيل وعروض الحيوانات ، كما يقيم فيها الاحتفالات الخاصة بأعياد نوروز ،ولم يقتصر الامر على هذا بل كانوا يقومون ببناء السرادق في هذه الساحات لتوزيع الطعام وإقامة مجالس العزاء فيها ايام عاشوراء(١٨)،وتعد هذه الاعمال عناصر جذب مهمة للسواح والتجار الاجانب حينذاك .

وثمة من هو اهم من ذلك بالنسبة للحياة الاجتماعية في مدينة تبريز، وجود العديد من المقاهي الصغيرة التي يتجمع فيها الناس وتعد مراكز مهمة لتأمين التواصل بين الناس ولتوطيد العلاقات

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

الاجتماعية بينهم ، وتوجد هذه المقاهي بين المحلات السكنية وبالقرب من دور استراحة القوافل التجارية (١٩)، وكان يتردد عليها كثير من التجار الاجانب بين الحين والآخر، وكانت تشد انتباه الاجانب اكثر من أي مكان اخر يصادفهم خلال تجوالهم في المدينة (٢٠)،وكل هذا يدل على مدى ازدهار تلك المدينة من الناحية العمرانية والاقتصادية .

-المبحث الثاني : الحركة الاقتصادية لمدينة تبريز

-التجارة

تعد تبريز ذات اهمية تجارية ومحطة رئيسية لتجمع البضائع التجارية كافة من جميع المدن وأبرزها الحرير، هذا المنتج الذي شكل البضاعة الرئيسة والمربحة للحركة التجارية مع كثير من البلدان وانعاش تجارة الدولة ، وكانت كمية الحرير التي تصل الى تبريز تقدر بنحو ٦٤٨ الف كيلو غرام سنوياً،وتعد مدن كيلان وشيروان اهم مصدر في إرسال الحرير الى تبريز بحكم موقعها الجغرافي منها. وقدرت قيمة الحرير في منتصف القرن السابع عشر بنحو ٢٨ اكو(٢١) للكيلو الواحد ، فكانت عائدات الحرير تشكل الجزء الاكبر من خزينة الدولة لغاية عام ١٧٠٠م (٢٢).

جذبت تجارة الحرير الشهرة لهذه المدينة حتى اصبحت اهم مدن اذربيجان ، ومنطقة التغلغل الفعال للتجار الاجانب ، بل اصبح يشكل جزءاً مهماً من تراثها ، ولم يقتصر تفوقها على تصدير الحرير فحسب بل حتى في صناعة المنسوجات الحريريه الفاخرة (٢٣).

اما فيما يتعلق بأسعار الحرير فكانت قيمته تختلف بحسب نوعه فنسبة الحرير الناعم كانت تقدر بنحو ١٨١اكو للكيلو الواحد ، أما الحرير الخشن فتصل قيمته الى ١٠ اكو للكيلو الواحد ، وشهد الحرير الخام الذي يجلب الى تبريز منافسة شديدة بين التجار الانكليز والفرنسين والبنادقة والهولنديين، وكانت الدولة العثمانية منذ عام ١٦٢١حتى عام ١٦٤١م تستورد نحو ١٣٧كيلو غرام منه ، وكان البنادقة يستوردون بهذه الكمية في نهاية القرن السادس عشر (٢٤).

والى جانب الحرير كانت تجارة القطن والسجاد تمثل احد السلع التجارية المهمة التي يستوردها تجار الغرب من تبريز، وقد ازدادت صادرات القطن في تبريز ونخجوان ، ولم يقتصر انتاج هاتين المدينتين على نوع واحد بل كلاهما ينتجان سبعة انواع من القطن ، وكان جزء من هذا المنتوج يوزع للأستهلاك المحلي، اما الباقي فيتم تصديره الى مراكز صناعية مهمة في اوربا ، ونظراً لشهرته فقد احتوت المتاحف العالمية على الكثير من نماذج الأقمشة القطنية التبريزية (٢٥).

وبهذا الخصوص ذكر الرحالة الفرنسي تاورنيه : "جعلت زيارة قبر الشيخ صفي الدين وتجارة حرير كيلان ، مدينة اردبيل واحدة من اهم المدن الايرانية، فغالبا ما تمر بها قوافل تجارة الحرير التي تصل الى ثمانمائة او تسعمائة بعير وذلك لمجاورة كيلان لها وقرب شماخي منها والمعروفة بإنتاج الحرير، وكانت تبريز اهم مدن اردبيل ومقر تجمع البضائع المصدرة " (٢٦).

ونظراً لإزدهار التجارة في هذه المدينة فقد حظيت مدينة تبريز بكثير من دور الاستراحة التي قدمت اهم وافضل وسائل الراحة للتجار وتأمين سير قوافلهم ، وقد ساهم الشاهات والحكام وكبار

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

التجار في بناء تلك الدور في مدة زمنية قصيرة في جميع انحاء ايران ، ففي عهد الشاه عباس الأول بلغ عدد دور الاستراحة الخاصة للتجار نحو ٩٩٩ دار في مختلف المدن الإيرانية ، وكانت هذه الدور تفوق ما موجود في العاصمة اصفهان (٢٧)،وهذا ما أكده الرحاله تاورنيه حول دار الاستراحة التابعه للشاه صفي قائلاً : " انمازت دار الشاه صفي في تبريز بسعتها ورقي بنائها ، فقد كانت تتسع لاستيعاب اكثر من مائة مسافر مع خيولهم ومراكبهم ، فضلاً عن ذلك كانت هناك دور اخرى تقع في الطريق المؤدي الى اصفهان بنيت بطريقة مختلفة وجميلة " (٢٨)،وفي الواقع ان هذه الدور بدأت تتحول إلى عمل مثمر ومربح جداً فيما بعد بالنسبة للشاهات والحكام وكبار التجار(٢٩).

وبهذا يمكننا القول أن النشاط التجاري كان اكثر حظاً على المستوى الاقتصادي حتى فيما يتعلق بالأعمال الحرفية والمصنوعات الخاصة بمدينة تبريز، إذ كانت تعرض هذه المصنوعات في اسواق تبريز فيقبل عليها التجار ليقوموا بتسويقها الى داخل البلاد وخارجها ، وبهذا تطورت الصناعة في تبريز حتى اصبحت اكثر قدرة بمرور الوقت عن باقي مدن ايران ، وهذا ما سنتناوله .

-الصناعة

شهدت الصناعات والحرف التقليدية في مدينة تبريز نشاطاً وتطوراً ملحوظاً في مراحل ازدهار الدولة واستقرارها ، ونعني هنا كل انواع الصناعة منها ما يخص تصنيع الإنتاج الزراعي والإنتاج الحيواني وما يتصل به، فضلاً عن باقي المصنوعات مثل تنقيب المعادن وتصنيعها والاستفادة منها في سد الاحتياجات الداخلية ، وصناعة الاسلحة الحربية وغيرها من الصناعات المختلفة .

وصل القطاع الصناعي في مدينة تبريز الى مستويات قياسية عالية مقارنة بما كان عليه الحال في القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، واعتقد المعاصرون ان الصناعة وفق مفهومها الصحيح موجودة في مراكز صناعية تمتلك الآلات وقوة العمل الكبيرة ، وجميع هذه الأمكانيات كانت متوفرة في مدينة تبريز وهذا ما جعلها المدن الاشهر في مجال الصناعة والتجارة آنذاك ابان القرن السادس عشر والسابع عشر، ومن اشهر الصناعات في تبريز حينذاك هي صناعة النسيج بأنواعه كافة بفضل دعم الشاهات الصفوين ورجال البلاط والاعيان لهذه الصناعة،إذ حدث ازدهار حقيقي في صناعة المنسوجات عندما قام الشاه طهماسب (١٥٢٤– ١٥٧٦م) بأنشاء مصنع للنسيج عام ١٥٣٢م في تبريز، وتعد هذه الخطوة الأولى من نوعا حينذاك ، وقد اجبر العاملين في البلاط على التدريب في هذا المصانع (٣٠)،حتى شكلوا قوة مهمة من إجمالي قوة العمل فيها ،سواء كان لغرض التعلم والتدريب ام لغرض العمل (٣١)،واصبحت تبريز من اشهر مدن الدولة الصفوية حينذاك في صناعة المنسوجات الرفيعة الجودة الحريرية منها والصوفية والقطنية.

وكانت مبادرة الشاه طهماسب الدافع لإنشاء معظم المصانع التي استمرت حتى عهد الشاه عباس الأول (١٥٨٨–١٦٢٩م)، وشهدت مصانع تبريز تقدماً ملحوظاً في إنتاج الأقمشة الحريرية المطرزة بالذهب، فضلاً عن إدخال الأساليب الفنية الجديدة بأ ستخدام الرسومات على انواع معينة من الأقمشة مثل الأطلس والمخمر والكتان (٣٢) .

وهذا ما اكده الرحالة اوليا جلي قائلاً : " إن اكثر ما كان يدهش التجار الأجانب في اسواق تبريز هو الأقمشة الحريرية المطرزة بالذهب ، والرسومات التي كانت تستخدم على انواع معينة من الأقمشة ،ومن اهم تلك الأنواع التي شهدت اقبالاً واسعاً من التجار الأجانب ، وفاقت الاقمشة العادية في ازدياد الطلب عليه ما يسمى الحرير التياب والقطيفة حتى اصبح المستهلكون في الداخل والخارج يفضلون ما يعرف بقماش تبريز ، لاسيما بعد ادخال الأساليب الفنية الجديدة وهو استخدام الرسومات على تلك الاقمشة " (٣٣) .

ويمكن أن نستنتج أن صناعة النسيج في مدينة تبريز قد أظهرت نمواً غير عادي بحلول القرن السادس عشر والسابع عشر، واصبحت تبريز من المراكز المهمة لنسج الأقمشة الحريرة بمختلف انواعها والممول الرئيس للنشاط التجاري للدولة الصفوية.

لاشك في أن السجاد التبريزي يعد من اشهر الصناعات التي تحتل مكانة مميزة ليس في اذربيجان ومدن ايران فحسب، بل في بيوت الشرق الأوسط ،حتى اصبح لايخلو بيت من بيوتات الأشراف والأعيان إلا وفيه من منتجات مصانع تبريز للسجاد ، وبحلول القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي احدث التجار الأجانب تأثيراً كبيراً في الإنتاج المحلي وممارسات التسويق ، وجلبت الأرباح والطلب المتزايد عليه الى زيادة انشاء عدد من المصانع في تبريز، وان هذا الطلب المتزايد يدل على ما لهذه المدينة من تاريخ طويل وعريق في هذه الصناعة ، حتى اصبحت تحتل المركز الأول في البلاد، وظهرت اسماء عدة انحصرت بالسجاد التبريزي منها سجاد بخشاش ، وقارجا ، وقراواني(٣٤)،ومع تنوع انتاج السجاد ، وظهور اسماء جديدة ومميزه له من ناحية الجودة ، أخذ المنتجون بالأهتمام بتلوينه وذلك بأستخدام الاصباغ الطبيعية التي كانوا يستخرجونها من النباتات الطبيعية والورود الحمر ، حتى غدت تبريز من اهم مراكز التلوين في البلاد (٣٥) .

ويعد السجاد المعروف بـ(سجاد شاه صفي)،هو الأغلى ثمناً والطلب عليه يأتي بشكل متزايد من الشاهات ، إذ كان في اغلب الأحيان ينسج بشكل خاص لمسجد الشيخ صفي في اردبيل ، وقد نال هذه النوع ما يستحقه من الشهرة داخل البلاد وخارجها ،حتى اصبح من اغلى واهم الآثار الفنية الموجودة في المتحف البريطاني ومتحف فكتوريا البرت في لندن ، نظراُ ما كان يحتويه من نقوش وزخارف فريدة، وتطورت هذه النقوش والزخارف حتى اخذ النساجون يقومون بنقش الأبيات الشعرية وبعض الرسومات التي تحوي على صور الحيوانات والأشجار وغيرها ،لاسيما في عهد الشاه طهماسب وتحديداً ما بين عام ١٥٣٩-١٥٤٠م (٣٦) .

اخذت هذه الصناعة تتطور حتى اصبحت اكبر منافس لصناعة السجاد الهندي مما ادى الى هبوط حاد في إنتاجه،وهذا ما جعل نصير الدين محمد شاه (٣٧) الهند يرسل الى الشاه طهماسب عام ١٥٤٤م بطلب عدد من نساجي تبريز الماهرين الى الهند لإحياء هذه الصناعة وتطويرها من جديد ، فاستجاب الشاه لطلبه وارسل له عدد اً من امهر النساجين في تبريز ، وساهمت الإجراءات التي قام بها الشاه طهماسب بتأسيس مكتب نسج السجاد الهندي التبريزي في الهند خلال هذا العام (٣٨)، وهذا يعد

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

مؤشراً على ان صناعة النسيج التبريزي كانت أكثر تنظيماً ودقة وانها قائمة على قواعد مهنية وتجارية كان من الصعب على غيرهم تقليدها، حتى اصبحت عاملاً مهماً جعل التجار يتوافدون عليها لاقتنائها او تسويقها داخل او خارج المدينة .

شهد عهد الشاه سليمان ١٦٦٦-١٦٩٤م بناء كثير من معامل صناعة السجاد في تبريز ، ونظراً لشهرة هذه الصناعة الواسعة ، اخذ الشاهات الصفويون يتبعون تقليداً اصبح سائداً فيما بعد ،وهو عند قدوم شاه او ملك لزيارة البلاد يقومون بفرش السجاد التبريزي ويسير عليه الضيف في مراسيم رسمية وهذا ما حدث عندما لجأ الأمير بايزيد بن السلطان سليمان عام ١٥٥٨م إلى ايران قاموا بفرش السجاد التبريزي في ساحة صاحب اباد في العاصمة قزوين(٣٩).

ولتفشي ظاهرة الرعي في المناطق الريفية دور في جعل الجلود من المنتجات المهمة فيها، فشكلت المصنوعات الجلدية نسبة كبيرة من صادراتها ، فضلاً عن الاستهلاك المحلي ، فقد اشتهرت مدينة تبريز بصناعة الأحذية بعد ان كانت صناعة حرفية ، حتى اصبحت من مركزاً مهماً في تصدير الأحذية الى مدن ايران ، وأنشئت اسواق خاصة لهذه الصناعة تسمى بـ(سوق كفاشان) أي اسواق الأحذية ، وعلى اثر تطور هذه الصناعة و توفر المنتجات الجلدية قد ساعد على ظهور الصناعات التي تعتمد عليها كصناعة دبغ الجلود (٤٠)، وبدأت صناعة الصابون من جهتها تأخذ حيزاً مهماً عام ١٠٠١، وذلك لانتشار تربية الماعز فيها، فقد كان الصناع المهرة يصنعون الصابون من زيت الماعز الذي يؤخذ من اللية وبعض انواع النباتات، فضلاً عن ظهور صناعة الشموع التي كانت تصنع من المصدر نفسه (٤١) .

ونظراً لطبيعة مدينة تبريز الجغرافية وكثرة انتشار الغابات ظهرت فيها حرفة النجارة ، حتى تطورت إلى معامل امتاز انتاجها بالجودة لمختلف المصنوعات مثل الأبواب والشبابيك، بل حتى الحاجيات المنزلية إذ قاموا بصنع اسرة الاطفال، والملاعق الخشبية، وبنادق الصيد ، التي اشتهرت صناعتها في منطقة سرواب احدى نواحي تبريز ،ولم تعد هذه الصناعة حكراً على الحرفين،كما كانت سابقاً (٤٢)،وأشتهرت مدينة تبريز في صناعة الزجاج، فقد خصصت اراضي واسعة في تبريز لإنشاء معامل الزجاج لغرض تطوير هذه الصناعة، وسميت هذه المعامل بـ(شيشة كران) أي صناعة الزجاج (٤٣).

تأتي الصناعة العسكرية التي تكتسب اهميتها كونها وسيلة اساسية في الحفاظ على كيان الدولة واستقرارها،وابدى الشاهات اهتماماً خاصاً بهذه الصناعة في مراحل ازدهار الدولة واستقرارها، فأنشئت معامل الأسلحة في تبريز لكي تكون درعاً واقياً من هجمات الدولة العثمانية والأوزبك المحتملة ، اهتم حكام الدولة الصفوية بصناعة الأسلحة في مراحل متعاقبة ونشطت هذه الصناعة في عهد الشاه عباس الاول(٤٤)،وكان الحرفيون يقومون بصناعة الأسلحة البسيطة كالرماح والسهام (٤٥)، لكن هذا لا يعني أن مصانع الدولة لم تقم بهذا، إذ كانت تتم فيها صناعة بعض الأنواع ، وتطورت الى صناعة القذائف والمدافع، بل حتى انهم قد برعوا في صناعة الملابس الحربية ، التي كان يصدر جزء منها

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

الى روسيا ، وفي القرن السابع عشر وصل عدد المختصين بهذه الصناعة الى نحو ٣٠ الف شخص (٤٦).

ويمكننا القول أن الصناعات التي استعرضتاها تبقى نماذج من نشاط صناعي اكدت المصادر على تنوعه، إلا انها لم تكن نماذج كافية على تفرع قطاعاته وتفاعلها مع حركة التسويق الداخلي والخارجي

-الزراعة:

كان للطبيعة الجغرافية والظواهر التضاريسية لمدينة تبريز أن جعلت منها اجمالاً ارضاً صالحة للزراعة وتنوعت تربتها تبعاً لصفاتها الطبيعية والكيمياوية، ومن ثم تنوعت المزروعات فيها ، وتميزت مدينة تبريز بثروة مائية كبيرة واهم مصادر المياه التي يعتمدون فيها على ري مزروعاتهم هي مياه الامطار التي كانت تهطل في فصل الشتاء بغزارة ، فضلاً عن وجود الأنهار وعيون المياه والآبار، إذ يوجد في تبريز نهر (آجي جاي) او (تلخه رود) ، ويعد الاخير من اكبر انهار تبريز، ويبلغ طوله نحو ١٦٠ كيلو متر، وايضاً يوجد في داخل المدينة وخارجها نحو تسعمائة بئر (٤٧).

وقد اشاد الرحالة الاجانب في وصف خصوبة الأرض فيها وتنوع محاصيلها الزراعية ، فذكر الرحالة تاورنيه قائلاً : " بأنها مدينة انمازت بخصوبة ارضها وتنوع محاصيلها مثل الأعلاف والبقوليات والخضروات حتى ان البعض يظن بأنها من الأتابكة القديمة " (٤٨) اما الرحالة ادم اولئاريوس فوصف منتوجاتها الزراعية قائلاً : " ان العنب الذي يزرع في مدينة تبريز وشيراز هو الافضل على الإطلاق في ايران ، وان اطيب انواع العنب الذي يسمى طبرسه وتكثر زراعته في تبريز " (٤٩)، وهذا النوع من العنب يستخدم في صناعة النبيذ ويعد من اجود انواع منتوجاتها الزراعية ،وفي بداية القرن السابع عشر نرى ان صناعة الخمور اخذت تتطور ايضاً مثل النبيذ الأحمر والعرق الابيض (٥٠).

وعلى الرغم من الحروب الصفوية العثمانية التي شهدتها هذه المدينة والتي أدت الى انحسار المساحات المزروعة حتى اضحت الزراعه شبه معدمة، إلا ان مدة عدم الاستقرار لايمكن ان تخفي حقبات عرفت فيها الزراعة انتعاشاً فاق باقي مدن ايران، واشتهرت بجودة منتجاتها الزراعية ، ومن اكثر منتجاتها من الحبوب هو القمح الذي زرع بأكثر من نوع (٥١).

أما فيما يخص توزيع الثروة الحيوانية لهذه المدينة ، فأن البيئة الجغرافية لها دور واضح في ذلك ، وان وجود الحيوان وتربيته قد يرتبط ارتباطاً مباشراً بخصوبه الأرض وانتاجها الزراعي ، ونظراً لذلك فقد وجد النشاط الرعوي وتربية الماشية تقدماً ملحوظا في المناطق الريفية ، كالأبقار والأغنام بل حتى الغزلان، واصبحت لها اسواق خاصة تباع فيها (٥٢) ، اما عن اهم الحيوانات التي ساهمت منتجاتها في النشاط التجاري ، سواء الداخلي منها ام الخارجي، فهي الأغنام والماعز التي تصدت قطاع الماشية لعلاقتها بالأسواق الخارجية ، فجلد الماعز كان بضاعة مطلوبه من قبل التجار ، اما تربية الأغنام فتعود اهميتها لا الى انتاج الجلود فحسب بل ايضاً الى انتاج الصوف الذي شهد اقبالاً واسعاً سواء من داخل البلاد ام من خارجها ،إذ يتم جمعه في اسواق تبريز ثم تصديره الى الأسواق

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

الأوربية ، وكان سعر الليه الواحدة من الاغنام يعادل ٩ باونات (٥٣) .

من الملاحظ أنه لا يمكن الفصل بين تربية الماشية في الريف وبين مصالح اهل المدينة، بل تأسست علاقة عضوية بين الطرفين على صعيد التسويق الداخلي والخارجي ، فعلاوة على الاستهلاك اليومي لأهل المدينة فأنها ادت دور الوسيط بين التصدير الخارجي والريف لتسويق منتجاتها ، ومن ثم فقد تحكمت في الإنتاج والتوزيع بكميات كبيرة .

-التعدين:

بدأت المساعي الصفوية لأستثمار مناجم الذهب في تبريز التي كانت تسمى بمناجم الشمس والقمر ، وجرت محاولات عدة لأستخراج هذه المعادن، لتأمين حاجاتهم المتزايدة ، وقد امر الشاه عباس الاول بالتنقيب عنه ولكن قلة الخبرة والموارد المالية ادت الى توقف العمل فيها (٥٤)، ومن المعادن المهمة في هذه المدينة هي صخور المرمر التبريزي التي انمازت بأنها غاية في الجودة والشفافية حتى شبهت بالبلور، و لمدى طراوتها كانت تقطع بالسكين ، ومن الموارد المهمة الموجودة في الجهة الجنوبية الشرقية للمدينة معادن الفحم الحجري ومعادن الزرنيخ في الجهة الشرقية ، فضلاً عن معادن الملح المتواجد في قرى المدينة، ومعدن تراب المتواجد في قرية ليقوان في منطقة مهند اباد، الذي صنعت منه الاواني الفخارية (٥٥).

ولم يقتصر النشاط الاقتصادي للمدينة على الصناعة والتجارة فحسب بل شكلت الحرف والصنائع نشاطاً اساسياً بالنسبة للاقتصاد والمجتمع ، فمن الناحية الاقتصادية رفعت التقنيات والمهارات الحرفية قيمة المواد الأولية بعد تحويلها الى سلع وبضائع جاهزة للأستعمالات المختلفة، ووفرت موارد مالية مهمة لأصحابها، ومن الناحية الاجتماعية انتمى الحرفيون في مدينة تبريز الى شرائح تنوعت اصول افرادها واختلفت مستوياتهم المعيشية التي تأسست على مداخيلهم من النشاط الحرفي ، وهذا ما سنتناوله .

-الأدوار الأقتصادية للحرف المحلية والأسواق

-الحرف المحلية

من الواضح أن لكل حرفة اهميتها وامتيازاتها الخاصة بالنسبة للمجتمع التبريزي، فهناك ما يسمى بالحدادين، وحرفة الحدادة هذه تدخل في نطاق الحرف المعاشية البسيطة ،ومن المؤكد أن هذه الحرف مرتبطة كغيرها بطبيعة المجتمع، وتجسد اغلب هذه الحرف والصنائع الأرتباط الوثيق بين مركز المدينة والريف والقرى المحيط بها، فكانت الخدمات متبادلة بينهما، إذ ضمنت الأولى استمرارها بفضل تزويد الثانية لها بحاجياتها في وقت كانت المدينة المذكورة تمد سكان محيطها بمعظم حاجياتهم ، فمثلاً المدينة تلبي مصنوعات الحاجيات الضرورية التي لاغنى لسكان القرى والريف عنها الذين كانوا يقتنون الأدوات الزراعية المصنوعة من الحديد اولاً ، ولبي الحدادون بمصنوعاتهم بعض حاجيات سكان المدينة (٥٦) .

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

شكلت باقي الحرف جزءا اخر ومهما من قوة العمل المهمة في مدينة تبريز ، فهناك الخياطون ينشطون بشكل واسع وكبير في تبريز، وكان الشائع أنها يعمل فيها امهر واشهر الخياطين،ولهذه المهنة اهمية خاصة لدى قصور الحريم حينذاك (٥٧)، وفضلاً عن تلك النشاطات الحرفية فقد امتهن سكان تبريز صناعات الساعات التي تعلموها من الفرنسين ، وهناك من هو متخصص بصنع الآلات الموسيقية كالطبول والناي ، ولديهم سوق خاص بهم سمي بـ(سوق استون) (٥٨) .

واجمالاً فإن المهن والحرف قد تعددت في مدينة تبريز، وهذا دليل على ان التقسيم المهني قد ازداد تعقيداً،وذلك لأن الصناعة الواحدة بلغت درجة قصوى من التقسيم الى حرف متعددة وصغيرة ، فمثلاً الصناعة التي تختص بالجلود تنقسم على صناعات وحرف عدة فمنهم صناع الأحذية بأنواعها، وهناك الاسكافيون كما هو معروف المختصون بإصلاح الاحذية (٥٩)، وتجدر الاشارة الى انه لا يوجد خط فاصل بين الصناع والحرفين من جهة وبين التجار من جهة اخرى، فغالبا ما قامت شراكة واتفاقيات بين الطرفين تنص على صناعة البضاعة وتسويقها في ان واحد .

وفضلاً عن هذه النشاطات الحرفية كان هناك الصاغة، وكانوا يمدون الشاهات والأغنياء بالمجوهرات، والبعض منهم كان يعمل داخل قصور الشاه، ولهم اماكن خاصة لممارسة هذه المهنة،ويطلق على الصائغ لقب (معير الممالك)،ويذكر أن العرش الذهبي للشاه اسماعيل الأول قد صنع من الحرفيين في تبريز (٦٠).

وبذلك يمكننا القول أنه لايوجد فاصل بين ممارسة الحرفة او صناعتها وبين بيعها وتسويقها ، لأن اغلب الحرفين في تبريز كانوا يمارسون هذه المهن في دكاكين واسواق صغيرة مخصصة لمهنة معينة.

-الأسواق

أصبحت مدينة تبريز مركزاً للشرق والغرب مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالسوق العالمية ، ولاشك في ان نسبة الصادرات أي الحصة المصدرة من إجمالي الإنتاج تتزايد بمرور الوقت، وكان كثير من التجار واصحاب المصانع يعملون على تخفيض انتاجهم وزيادته بحسب الطلب ،وهذا ما اعطى قوة دفع جديدة لبناء كثير من الأسواق التجارية ، وقد جسدت هذه الأسواق عصب الحياة الاقتصادية لمدينة تبريز، إذ يتركز فيها النشاط الصناعي والتجاري والذي يؤدي دوراً مهماً في حياة المدنية لكونه عنصراً أساسياً لازدهارها.

كانت الأسواق في مدينة تبريز تتخذ شكل الدكاكين المتلاصقة صفاً متصلاً يقابله صف مماثل يفصل بينهما ممر سقوفه معقوده، قسمت فيها الاسواق إلى قسمين منها الصناعات اليدوية التي يقوم اربابها بتحويل المواد الاولية الى مصنوعات وظهرت في تلك الأسواق ظاهرة التخصص أي تتجمع كل طائفة من التجار في سوق خاص لها تنسب له (٦١)،على سبيل المثال سوق العطارين ،وسوق الصباغين ،وسوق الحدادين ،وهذ الحوانيت او الدكاكين كانت مخصصة للصناعات والبيع في ان واحد (٦٢)، وكان لهذه الأسواق اثر واضح في ازدهار تجارة تبريز الداخلية .

لقد بلغ عدد الأسواق في عهد الشاه صفي ١٦٢٩-١٦٤٢م في تبريز نحو ٧٠٠ الف محل تجاري (دكان)، ومعظمها تقع في مركز المدينة وقد بنيت بطريقة مميزة واكثر ايجابية ، وتم بناء مركز كبير خاص للتجار يسمى بـ(يتم جه) يتداول فيه التجار كل ما يتعلق بالنشاطات التجارية وقد ازداد مستوى دخل هؤلاء التجار وثرواتهم نتيجة تصاعد الصادرات (٦٣)، وبهذا الخصوص ذكر الرحالة شاردن بأن عدد الدكاكين التجارية في الأسواق كانت نحو ١٥ الف دكان ، وأن هذه الاسواق تعد من اجمل وافضل الأسواق في اسيا (٦٤) ،ومع تزايد الكثافة السكانية في تبريز في اواسط القرن السابع عشر، واتساع المدينة وتوسع التجارة فأن عدد الأسواق التي ذكرها شاردن هي اقرب ما تكون الى الحقيقة.

وقد كان يراعي في نصب الاسواق ما يوفر سهولة التموين من جهة ويحترم متطلبات حفظ الصحة او النظام المعماري من جهة اخرى،وهناك بعض الأسواق بنيت حول الجوامع الكبيرة التي تكون ابوابها مفتوحة على الاسواق المحيطة بها، وهكذا كانت الاسواق مرتبة داخل المدينة حسب اهميتها (٦٥)،وهناك بعض الأسواق تعود الى ما قبل الدولة الصفوية مثل (البازار شاهي) أي سوق القيصرية المخصص لبيع المجوهرات والأحجار الثمينة، ويعود بناؤه الى عهد اوزون حسن عام ٨٥٠ (٦٦)،وتجدر الاشارة الى ان الخارطة العامة للأسواق الضرورية قد شهدت تطوراً ملحوظاً ابتداء من القرن السادس عشر، وبرزت اسواق اخرى شكلت عدداً اكبر حول التجمعات السكنية.

بما ان اغلب اهالي تبريز يعملون في الصناعة والتجارة ،فقد تنوعت المحلات والأسواق فيها بحسب الحرف ، واشهر هذه الاسواق هو سوق الصفافير(قالاينجلار بازاري) ، وايضاً سوق القبعات (باياف بنكنو)، ولشهرة هذه الحرف واتساعها فقد خصصوا لها بساتين كبيرة لبناء الأسواق التجارية، مثل بستان الصناعي ،وبستان الإسكافي ،وبستان خياطي (٦٧).

كان الهاجس الأمني يشكل أولى أولويات حاكم المدينة واصحابها فقد حظيت الأسواق وحوانيت التجارة بحماية خاصة إذ عينت الدولة حرساً خاصاً مكلفين بالسهر عليها ليلاً ومنع أي شخص يسير بين تلك الاسواق دون ان يحمل فانوساً وخلاف ذلك يتم سجنه ،وكان العمل يبدأ في الأسواق منذ أن تفتح أبوابها بعد طلوع الشمس ويمتد لساعات الغروب ويكون هناك شخصاً في غالب الأحيان يقتصر عمله على قرع الطبول إيذاناً بافتتاحها وإغلاقها (٦٨) ، ويشرف على مهمة هؤلاء الداروغة (٦٩) المسؤول عن التشكيلات الادارية للأسواق، فضلا عن مسؤولية الحفاظ على اسقرار الاسواق ، اما بالنسبة لتحديد الأسعار على البضائع والسلع ، فيتم ذلك من المحتسب (٧٠) الذي تتمثل وظيفته في تحديد تلك الأسعار وغالباً مايكون تحديدها في كل اسبوع ،وذلك بعد الاجتماع مع معاونيه الثلاث،وفي حالة وقوع أية مخالفة من التجار واصحاب المحلات في تحديد الأسعار يتم معاقبتهم بالسجن أو الفلقة، وكان على المحتسب أن يراقب مساعديه الذين اتخذهم لمعاونته على القيام بالمهام حتى لا يكونوا عرضة للرشوة(٧١).

وفيما يخص تحديد قيمة الضرائب المفروضة على التجار واصحاب المحلات،فيعد الكلانتر(٧٢)

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

ومساعديه المنظم الحقيقي للحياة الاقتصادية في الاسواق ، ويتمتع بنفوذ قوي جداً في المدينة لكونه يعين من الشاه مباشرة ، وأن الحكومة الصفوية قد حرصت على تعيين أمناء للأسواق لمساعدة الكلانتر في مهمته واهم مهنة هي ما يسمى بالنقيب(٧٣)، ومن ابرز مهام الكلانتر هو الأجتماع مع التجار والحرفين ثلاثة اشهر في كل سنة، وهو من يتولى مهمة تحديد الضرائب وارسالها الى النقيب الذي بدوره ايضاً يقوم بارسالها الى (الكخدا) او مايسمى المختار (٧٤)، وبعد التصديق عليه من النقيب تعود الى الكلانتر للتصديق عليها(٧٥) .

ومن الخصائص التي تميزت بها مدينة تبريز انها كانت المدينة الاولى لضرب العملة في ايران منذ عهد الشاه اسماعيل الاول، وكان جزء كبير من الذهب والفضة التي يدخل الى تبريزعن طريق التجار،إذ يتم تحويله الى العملة التي يتداول بها داخل البلاد(٧٦)،واغلب المسكوكات التي كان يتم التداول بها في جورجيا وارمينيا قد تم سكها في مدينة تبريز، وهذا مايدل على عمق التبادل التجاري بينها وبين هذه المدن ، اما انواع العملات التي كانت تضرب في تبريز هي العباسي ،والمحمودي، والشاهي ،والبيتيس ،وكانت العملة المتداولة في تبريز هي العملة الفضية (٧٧).

ومن الواضح بأن هذا يعكس لنا مدى التقدم والاستقرار الاقتصادي لهذه المدينة ،لأنه عن طريق قيمة العملة وقوتها الشرائية نستطيع أن نتوقف على مدى الرفاهية لهذه المدينة ،فضلاً عن طبيعة الحركة التجارية وحجمها التي هي من العوامل التي تحدد نشاط حركة النقود المتعامل بها في التبادل التجاري.

-المبحث الثالث : العوامل المؤثرة في تدهور التجارة في تبريز

تعرضت مدينة تبريز إلى ركود وانحطاط اقتصادي لسنوات بسبب الهجمات العثمانية المتكررة منذ معركة جالديران عام ١٥١٤م ، وعلى اثر هذه المعركة طرأت تحولات واسعة على المواصلات وخطوط التجارة (٧٨)، وتحكمت الدولة العثمانية على امد طويل بطريق الحرير التجاري، وقد وضعت هذه السيطرة من العثمانيين حداً لأول ازدهار شهدته المدينة ، فضلاً عن كل عمليات الحرق والنهب والسلب(٧٩)، فمدينة تبريز التي فاق نشاطها الاقتصادي باقي مدن ايران، فأول ضربة اقتصادية تعرضت لها، هي الهجرة القسرية للفئة الفاعلة اقتصادياً من الصناع والحرفين الى اسطنبول الذين بلغ عددهم نحو ٣ آلاف شخص ، وبذلك استحوذ السلطان سليم الأول على صناعة السجاد الإيراني مما انعكس هذا الأمر سلبياً على ازدهار هذه الحرفة ونشاطها (٨٠).

تتابعت الاشتباكات بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية ففي عهد الشاه طهماسب ، تعرضت تبريز لثلاث هجمات في عامي ١٥٣٤و ١٥٣٥ ، وعام ١٥٤٨م، تعرضت خلالها الى اضرار اقتصادية كبيرة جداً، إذ أتبع الشاه طهماسب اثر هذه الحملات سياسة الارض المحروقة ، فعمد الى اتلاف الكثير من المزروعات وردم قنوات الابار(٨١)، فضلاً عن قيام الجيش العثماني بنهب وسلب كل ما تقع عليه ايديهم، وتأتي الاضطرابات الداخلية خلال حكم الشاه طهماسب تأخذ دورها ايضاً ،فكانت السبب في إخلائها من الحرفين والتجار بسبب غلق كثير من الأسواق والقيصريات والمحلات

التجارية ، (٨٢) .

وبعد وفاة الشاه طهماسب عام ١٥٧٦م وتولي الشاه محمد خدابندا عام ١٥٧٨م ،تعرضت مدينة تبريز للهجمات العثمانية وبقيت تحت السيطرة العثمانية حتى استعادتها من الشاه عباس الأول عام ١٦٠٣م ،وقد تمكن من بسط الأمن في هذه المدينة بفضل سياسته العسكرية (٨٣)،فطالت اعمال البناء جميع قطاعات المدينة ، وحقق ظروفاً مثالية لمدينة تبريز الاقتصادية بعد ان كانت شبه معدمة بالكامل .

ومما كان له دور ايضاً في ايقاف النشاط التجاري هو الكوارث الطبيعية التي اصابت المدينة المتمثلة بالزلازل المتتالية ،للأعوام ١٥٥٠و١٦٤١و١٦٤٧و١٦٧١و١٧٢١م ، ولم ينعكس هذا على الجانب الاقتصادي لها فحسب ، وانما كان له اثر في معالم المدينة الحضارية ، وتعرضت فيه الكثير من القوافل والحمامات التجارية الى الدمار وقتل ما يقارب ٨٠ الف شخص (٨٤).

وهناك عامل اخر ادى الى تنازل تبريز عن جزء كبير مما تبقى لها من دور تجاري مهم في البلاد وتغير المسار التجاري للمدينة هو نقل العاصمة مقر الشاه الى قزوين بسبب الهجمات العثمانية وثم الى اصفهان عام ١٥٨٩م ، فكان لذلك دوراً مهم في انتقال كثير من كبار التجار والارمن الى مدينة عباس اباد ، ومع كل ذلك فقد كانت مدينة تبريز مستقرة اقتصادياً عند دخول الافغان وسقوط العاصمة اصفهان عام ١٧٢٢م وعلى الرغم من استقرارها الاقتصادي إلا انها لم تقدم أي دعم للعاصمة اصفهان في اثناء حصار الافغان (٨٥) .

الخاتمة

– كان للموقع الجغرافي لمدينة تبريز والإمكانات الاقتصادية دور جوهري في نشاط عملية التبادل التجاري ، ليس على الصعيد الداخلى فحسب بل أتاح الموقع لها أن تقوم بدور الوسيط التجارى بين الدولة الصفوية وبين الدول الاوربية ، لأستمرار الحركة التجارية لكل التجار بدون انقطاع .

– كان للطبيعة الجغرافية والظواهر التضاريسية وتنوع تربتها أن جعلت منها اجمالاً ارضاً صالحة للزراعة ،ومن ثم تنوعت المزروعات فيها، وإن الموارد الطبيعية من زراعة ، وإنتاج حيوانى ، وصناعى حاولت أن تواكب حركة النشاط التجارى قدر المستطاع فكانت بعض المواد الخام الزراعية والحيوانية تصدر إلي المدن الأوروبية التجارية مثل الصوف والجلود وقد أدى الإنتاج الصناعى دوره في حركة التسويق الداخلى وربما سد الإحتياج المحلى أحياناً .

– .لقد أدت الأسواق بأنواعها مهمة اقتصادية واجتماعية طيلة مدة الحكم الصفوي فعلاوة على أنها كانت مكاناً للبيع والشراء مما ساهم في حركة الرواج التجاري كانت أيضاً عالمًا ملائمًا للتلاقى الثقافى بين نسيج المجتمع التبريزي. كان نشاط الحركة التجارية في اسواق تبريز وتنافس التجار من البلدان كافة في تدعيم علاقاتهم التجارية مع الدولة الصفوية أدى إلى دعم هياكلهم ومؤسساتهم التجارية ، لذلك كثر تأسيس دور الاستراحة التي أدت مهاماً متنوعة من مأوى للتجار ، ومخازن للسلع ، وسوق تجارية للبيع والشراء، ومكان لإقامة القناصل وقدمت اهم وافضل وسائل الراحة وتأمين سير قوافلهم ،

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ – المجلد ٤٤ – السنة ٢٠١٩

وقد ساهم الشاهات والحكام وكبار التجار في بناء تلك الدور في مدة زمنية قصيرة في جميع انحاء ايران .

-إن والضعف والهجمات التي تعرضت لها الدولة الصفوية ونقل العاصمة اثر ذلك كل ذلك أدى بلا شكٍ إلي انحسار الحركة التجارية وضعفها في مدينة تبريز.

-الهوامش:

١- بهروزعمرانى وحسين اسمعيلى سنگرى ، بافت تاريخى شهر تبريز، چاپ اول ،سميرا ، تهران ، ١٣٨٥، ص١٣؛ نور الدين عظيمى ، تاريخ رشد تبريز (تاريخ تطور تبريز) ، مجله ، برسيهانى تاريخى ، شمارۀ ۴، سال ٥، ستاد بزرک انتشارات ، ١٣٤٩،ص ٧٢٨.

٢- سياحت نامه شاردن ،ترجمة : ج٢، تهران ، ١٣٣٥ ش ، ص٣٢٨.

٣- آدام اولئاريوس،سفرنامة اولئاريوس اصفهان خونين شاه صفي، ترجمة :حسين كرد بچه ،جلد دوم ، مطبعة بهمن،١٣٦٩هـ.ش، ص ٢٤٩.

٤- مينورسكى، تاريخ تبريز، ترجمۀ : عبد العلى كارنگ ، از انتشارات، كتابفروشى تهران ، ١٣٣٧، ص٥٩ ؛ عبد الله متولي ، تاثير منازعات عصر صفويه برشالو ده هاى شهرى ومنابع اقتصادى ٩٠٧-١٠٢٥ ه ، مجله تحقيقات تاريخ اجتماعي ، پژوشگاه علوم انسانى ومطالعات فرهنگى ، سال چهارم ، شمارۀ اول ، بهاروبستان ، ١٣٩٢، ص١٤٥.

٥- سفرنامه هاى ونيازيان در ايران ، سفرنامه هاى ونيزيانى كه در زمان اوزون حسن آق قوينلو واوايل عهد صفوى به ايران آمده اند ، ترجمۀ : منوچهر اميرى ، چاپخانۀ ، شركت سهامى انتشارات خوارزمى، ص٤١٢؛ بهروزعمرانى وحسين اسمعيلى سنگرى، بيشين ، ص ٥٩.

٦- جليل نايبيان وقادر جودى سفيدان، نگرشى بر وضعيت گروههاى حيدرى و نعمتى شهر تبريز در دوره صفويه و قاجار با تأكيد بر عقايد مذهبى اين گروهها، پژوهشنامه تاريخ -سال دهم - شماره سى و هفتم ص١٤٦؛بهروزعمرانى وحسين اسمعيلى سنگرى، بيشين ، ص ٥٩.

٧- جليل نايبيان وقادر جودى سفيدان ، بيشين ،ص١٤٦.

٨- سياحت نامه شاردن ، بيشين ، ص٤٧٩؛ جملي كارري، سفرنامه كارري، ترجمۀ:عباس النخجواني وعبدالعلي كارنج، مديريت عمومى فرهنگ وهنر در اذربيجان شرقى ، تبريز،١٣٤٨هـ ، ص٣٧.

٩- سياحت نامه، بيشين ، ص٤٧٩.

١٠-حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية،مج١٠، ١٤، دائرة التعارف للمطبوعات ط٦، بيروت، ٢٠٠٢،ص٥٨٥.

١١-مينورسكى ، بيشين ، ص ٥٦.

١٢-همان منبع ، ص٥٦.

١٣-اوليا چلبى ، سياحتنامه اوليا چلبى قسمت آذربيجان وتبريز ، ترجمۀ : حاج حسين نخجواني ، چاپخانۀ شفق تبريز ، ١٣٣٨شمسى، ص٥٧٥.

١٤-اوليا چلبى ، بيشيين، ص٥٧٦.

١٥-مينورسكي ، بيشين ، ص٥٦.

١٦-ليدا بليلان اصل و فهيمة دوستار ، بررسى تأثير مزارات درتوسع هى ساختار شهرىِ شهر تبريز از دوره ى ايلخانى تا صفوى دور هى ايلخانى تا صفوى ،فصلنامه پژوهش هاى معمارى اسلامى / شماره هشتم / پائيز

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ - المجلد ٤٤ - السنة ٢٠١٩

١٣٩٤سال ميزدهم ، ص ٥٤.

١٧- اوليا چلبى ، بيشيين،ص٢٧٧.

١٨- همان منبع ، ص٢٨٢.

١٩- ليدا بليلان اصل و فهيمة دوستار ، بيشين، ص ٥٤.

٢٠- مينورسكى ، بيشين ، ص٥٧-٥٨.

٢١- الاكو عملة فرنسية وكل ١٥ اكو يساوي واحد تومان ايراني .

٢٢- عون آغا الهى، تاريخ پا نصد ساله تبريز (غز آغاز دوره مغولان تاپايان دوره صفويان)، ترجمة : زارع شاهمرسى، مؤسسه انتشارات امير كبير ، ١٣٨٧، ص١٢٥.

٢٣- سفرنامه هاى ونيازيان در ايران، بيشين ، ص٤١٢.

٢٤- ثريا فاروقي ، ص١٦١

٢٥- عون آغا الهى ، بيشين ، ص ١٢٧.

٢٦- ژان باتيست تاورنيه، سفرنامۀ تاورنيه، ترجمۀ : حميد ارباب شيراني ،پاريس، ١٦٧٧، ص ٢٠١.

٢٧- عون آغا الهى ، بيشين ، ص ١٦٨.

٢٨- ژان باتيست تاورنيه، بيشين ، ص١٩٠.

٢٩- عون آغا الهى ، بيشين ، ص١٢٨- ١٣١.

٣٠- همان منبع ، ص ١٣٢.

٣١- مهدي گيواني ، بيشه وران ورتگي صنفي آنان در عهد صفوي، ترجمۀ : يزدان فرخي، مطبعة سبهر ،تهران ، ١٣٩٢هـ.ش ، ص٦١.

٣٢- عون آغا الهى ، بيشين ، ص١٣١.

٣٣- اوليا چلبى ، بيشيين ، ص١٢٨.

٣٤- Bournoutian, G. A.; Armenians and Russia (1626 – 1796) A Documentary Record, Mazda, California, 2001,p.69-70.

٣٥- همان منبع ، ص١٣١.

٣٦- اوليا چلبى ، بيشيين ، ص٢٨١.

٣٧- اوليا چلبى ، بيشين، ص ٢٨١ .

٣٨- . سياحتنامة شاردن ، ص٤١٦.

٣٩- همان منبع ، ص١٣١.

٤٠- اوليا چلبى ، بيشين، ص ٢٨١ .

٤١- عون آغا الهى ، بيشين ، ص١٥٤.

٤٢- تاورنيه ، بيشين ، ص٢٦٦.

٤٣- عون آغا الهى ، بيشين ، ص١٥٤.

٤٤- بهروزعمرانى وحسين اسمعيلى سنگرى ، ص ٥٤.

٤٥- نهلة نعيم عبد العالي ، الشيخ علي خان زنكنه واصلاحات الداخلية في ايران (١٦٦٩- ١٦٨٩) ، مجله ، العدد الثالث ، مركز احياء التراث العلمي العربي ، جامعة بغداد، ٢٠١٧م، ص ٤٥٤.

٤٦- عون آغا الهى ، بيشين ، ص١٣٤.

٤٧- بهروزعمرانى وحسين اسمعيلى سنگرى ، بيشين، ص ١٥؛ اوليا چلبى ، بيشيين ، ص٢٧٨.

٤٨- تاورنيه ، بيشين ، ص

٤٩- آدام اولئاريوس ، بيشين ، ص ٦٣٠.

٥٠- بهروزعمرانى وحسين اسمعيلى سنگرى ، بيشين ، ص٩٧.

٥١- عون آغا الهى ، بيشين ، ص ١٥٦.

٥٢- سفرنامه هاى ونيازيان در ايران، بيشين ، ص ٤٣٧.

٥٣- همان منبع ، ص٤٣٧.

٥٤- بهروزعمرانى وحسين اسمعيلى سنگرى ، بيشين ، ص١٠٤.

٥٥- همان منبع ، ص١٠٤.

٥٦- عون آغا الهى ، بيشين ، ص ١٥٦.

٥٧- همان منبع ، ص١٥٦.

٥٨- ليدا بليلان اصل و فهيمة دوستار، بيشين، ص ٥٢.

٥٩- مينورسكي ، بيشين ، ص٥٥.

٦٠- اوليا چلبى ، بيشين، ص ٢٧٨ .

٦١- مهدي گيواني ، بيشين، ص ٦٢.

٦٢- همان منبع ، ص٦٩.

٦٣- اوليا چلبى ، بيشين، ص ٢٧٨ .

٦٤- سياحت نامه شاردن ، بيشين،ص٤٠٩.

٦٥- مينورسكي ، بيشين ، ص٥٦.

٦٦- همان منبع ، ص٥٦.

٦٧- همان منبع ، ص٥٦.

٦٨-عون آغا الهى ، بيشين ، ص ١٦٦.

٦٩- الداروغة تعود هذه الكلمة الى العهد المغولي معناه الضغط على الشيء ،وفي العهد التيموري يتم تعينه حاكماً على المدن ،اما في العهد الصفوي فقد تطورت لتصبح مهمتها الحفاظ على النظام والأمن في المدينة ومعاقبة السراق وتحديد نوع العقوبة ، الميرزا سميعا، تذكرة الملوك، ، تهران، ١٣٧٨هـ ش، ص٤٨-٤٩.

٧٠- المحتسب يعود اصل هذا المنصب الى العصر الاسلامي ، وتكون مهمته في العصر الصفوي تنظيم الامور الاقتصادية والتدقيق في الاوزان والمقادير ،وتحديد اسعار المواد الخام ، وتوفيير البضائع الاولية ، ويستند في احكامه وقوانينه الى احاكم الشريعة الاسلامية ،سيد احمد عقيلى ، طبقة بندى اصناف وبررسى ساختار آنها در عصر صفويه ، (مجله) ، دوفصلنامه علمى –پژهشى تاريخ نامۀ ايران بعد از اسلام ، سال چهارم ، شمارۀ هشتم ، بهار وتابستان ١٣٩٣، ص١٥٠.

٧١- همان منبع ، ص١٥٠.

٧٢- A. K. S. Lambton, “The Office of Kalantar under the Safavids and Afshars,” in Mélanges d’Orientalisme offerts à Henri Massé à l’occasion de son 75éme anniversaire, Tehran, 1963, pp. 209–18; مينورسكي ، تذكرة الملوك ، سازمان اداري حكومت صفوي ، ترجمة : مسعود رجب نيا ، بهمن ، تهران ، ١٣٦٨هـ.ش ، ١٥٢.

٧٣- النقيب وهو من المناصب المهمة، إذ يتم تنصيبه من الشاه مباشرةً ، اما في مدينة تبريز فيكون النقيب بمنزلة الحاكم وبشترط في اختيار هذا المنصب ان يكون ذا اخلاق وسمعة ، واغلب الاحيان يوكل الى السادة والعلماء ،ومن

صلاحيته تحديد نسبة الضرائب على اصحاب المهن والتجار، والحد من رفع الاسعار وتحديد سعر البضائع في الاسواق A. K. S. Lambton ,Op.Cit,p. 168.

٧٤- الكخدا وتعود هذه الى ماقبل العهد الصفوي ولا يوجد تاريخ محدد لها ،و يتم اختياره من الثقاة من الناس اومن التجار ويشترط ان يكون من الحرفين الاكثر اتقاناً لمهنته ، ويكون عادةً مسؤولاً حتى عن القرى الصغيرة والأرياف أي اشبه بمهنة المختار، اما بالنسبة للمهام التي يقوم بها فهي ادارة جميع المسائل المرتبطة باصحاب الحرف ، ومسوؤل عن كل مطالب اصحاب الحرف واحتياجاتهم، فضلاً عن مهمة جباية الضريبة من التجار واصحاب الحرف ، والاستماع للمشكلات التي تخص اصحاب المهن ، سيد احمد عقيلى ، ص١٤٦.

٧٥- مينورسكي ، تذكرة الملوك ، ص١٥٢.

٧٦- حميد رضا صفاكيش ، صفويان در گذرگاه تاريخ ، تهران ، ١٣٩٠، ص ٤٨٥.

٧٧-باستاني بارزي ، سياست واقتصاد عصر صفوي ، تهران ، ١٣٦٧ش، ص ٣٨٦.

٧٨-عباس پورايران ،روابط ايران وعثماني در عهد صفويان ، دستور مشهد ، ١٣٨٤ ، هـ.ش ، ص٧٧.

٧٩-نادر ميرزا، تاريخ وجغرافية در سلطنة تبريز ، ص٣٠١.

٨٠- تاريخ اجتماعي تبريز ، ص١٤٨.

٨١- خورشاه بن قباد الحسينى ، تاريخ ايلچى نظام شاه ، انجمن آثار ومفاخر فر هنگى، تهران ، ١٣٧٩ ، ص ؛ ١٢٧حسن بک روملو ، احسن التواريخ ، ساطير ، تهران ، ١٣٨٤، ص٩٣.

٨٢- سفرنامه هاى ونيازيان در ايران ، بيشين ،ص١٧٢.

٨٣- هاشم آقاجري و ابراهيم مشفقي فر ، تحليل استراتژي نظامي ايران ومؤلف هاي آن در عصر شاه عباس بزرک، ١٠٣٨ه، ص٩؛ ملا جلال الدين نجم ، تاريخ عباس يا روزنامه ملاجلال ، پى چا ، ١٣٦٦،ص٢٥٠.

٨٤-محمد طاهر وحيد قزويني ، عباسنامه ي شرح زندگانى ٢٢ساله عباس ثاني ، كنابفروشى داودى ، اراک ، ١٣٢٩، ص ٢٤٥؛ محمد طاهر وحيد قزويني، تاريخ جهان اراى عباسى ، پژوهشگاه علوم انسانى ومطالعات فرهنگى ، ١٣٨٣، ص ٣٠٢.

٨٥- بصيرت نامه ، ترجمة : عبد الرزاق دنبلى ، تهران آناهيتا ، بى تا ، ص٧٣؛ مصطفى بن عبدالله حاجي خليفة چلبى ، تقويم التواريخ ، ميراث مكتوب ، تهران ، ١٣٧٢،ص١٨٦.

العدد ٣ - المجلد ٤٤ - السنة ٢٠١٩

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية